من مستويات الدلالة اللغوية
في المثل الشعبي الموصلي

د. علي احمد محمد العبيدي*

ملخص البحث

تمثل هذه الدراسة للمثل الشعبي الموصلي محاولة للكشف عن دلالة الرمز اللغوي في المثل الشعبي. والذي من خلاله نستطيع الكشف عن أنماط التعبير الشعبي الموصلي وقيمه الجمالية والمعنوية ومضمونة اللغوي الذي يعبر عن العقل الشعبي الموصلي وهو يصوغ أمثاله الشعبية.

The Signification of Symbol in Mosuli Folk - Saying

Dr. Ali Ahmed Mohammed Al Obiade

ABSTRACT

This study of Mosuli Folk – Saying is ar attempt at disclosing the Signification of symbol in folk saying.The manners of Mosuli folk – Saying its aesthetic significatory values ,and its subject are disclosed through this symbol. This symbol. expresses the Mosuli folk thinking that coins the folk – saying.

المقدمة

ربما كان المثل الشعبي من أهم الأنماط الأدبية الشعبية، أن لم يكن أهمها جميعا، وذلك لأنه يعبر عن أفكار منسية لا تزال تحيا وتعيش في الممارسات اليومية في حياتنا. ونستطيع ان

* مدرس/ مركز دراسات الموصل/ جامعة الموصل

ندرك أفكار الشعب، وتصوراته وآراءه، ومعتقداته، ودرجة ارتقائه، أو تخلفه من خلال أمثالـــه. ومع هذا فان المثل الشعبي لم يحظ بالعناية والاهتمام من قبل الدارسين كالتي حظيت بـــه بعـــض الأنواع الشعبية الأخرى.

وأن المؤلفات فيه أقل بكثير من المؤلفات فيها. وهم وأن كانوا قد ذهبـــوا الـــى إهمـــال الدراسة العلمية للأمثال، فانهم قد أولوا عناية بالغة بجمعها وتصنيفها وتبويبها.

ولعل هذه الدراسة تكون من بين ما قدم عن المثل الشعبي الموصـــلي علـــى المـــستوى الأكاديمي إذ ان هنالك دراستين قام بهما السيد شوقي يوسف بهنام مودعتين في مركز دراســـات الموصل قد درستا المثل الشعبي من وجهة نظر سيكولوجية.

وقد تركزت هذه الدراسة على جانب دلالة الرمز اللغوي في المثل الـــشعبي الموصـــلي على مستوى الإفراد والتركيب. لأن الكلمة هي مجموعة الأصوات المتراكبة مع بعضها لتـــشكل صورة رمزية دالة على معنى معين أو مفهوم ذهني محدد. هذا المفهوم يكون مدلولا لهذه الكلمة وله في الوقت ذاته صورة في الخارج تمثل مرجعيته الواقعية.

وقد تشكل البحث على مدخل نظري عالجنا فيه أولا الدلالة الرمزيـــة علـــى مـــستوى الإفراد والتركيب وعلى تعريف بالمثل الشعبي بوصفه دلالة رمزية ثانيا.

أما المباحث فقد انقسمت الى مبحثين :

الأول : دلالة الرمز على مستوى الكلمة. ونعني به الوقوف على مستوى الكلمـــة فـــي الجملـــة، ومحاولة إبراز الدور المركزي الدلالي لهذا الرمز اللغوي، وتأثيراته النصية السياقية على مستوى الجملة.

الثاني : دلالة الرمز على مستوى الجملة، ونعني به الوقوف على مستوى الجملة في التحليل، هذه الجملة التي تؤسس على الإسناد والقصد، الإسناد في المجال النحوي، والقصد في المجال الدلالي.

وترتبط الدلالة في إطار مستوييي الكلمة والجملة بالمتحدث بالرموز اللغويـــة، وكـــذلك المستمع، أي بما يطلق عليه اللسانيون بالتواصل الرمزي اللغوي.

مدخل نظري :

أولا : الدلالة الرمزية على مستوى الإفراد والتركيب :

كما هو متداول في إطار العلوم اللسانية، فان الرمز والدلالة في إطار النظـــام اللغـــوي يشكلان مرتكزات أساسية للوصول الى الدراسة العلمية لمعنى العلامة او الإشارة اللغوية، وبمـــا ان المثل الشعبي موضوع دراستنا العملي يشكل جملة يمكن ان تكون نصا أدبياً متكاملا، ذلك أن المجال الدلالي النصي لهذا التركيب الجملي يوحي بأكثر مما هو مقال عبر نظامه البسيط، وهـــو وأن كان بسيطا من جهة كمه النوعي، فانه متداخل من جهة تركيبه وإيحاءاته وابعاده المعنوية.

وطبقا لذلك، فاذا كان المثل الشعبي يشكل عملاً أدبياً أقل ما يقال عنه أنه مجازي إيحائي ذو صفة تمثيلية، فان هذا العمل الأدبي هو ((نظام دلالي، وهدفه إيجاد معنى عـــام فـــي العـــالم، ويمكن أن يعاد تفسير العمل الأدبي الى مالا نهاية، ذلك أن الأدب بما هو لغة، هـــو نظـــام مـــن الرموز، وكيانه يكمن في (النظام) لا في (الرسالة) وهو يتكون من تقديم مستمر للمعنـــى، ومـــن إخفاء مستمر لذلك المعنى في الوقت نفسه))[١].

وكمسالة بدهية في إطار الدراسات اللسانية، فقد ارتبطت الدلالة ســـواء فـــي مـــستواها العلمي أم الأدبي بالرمز، سواء أكان رمزا لغويا – كالأصوات والكلمات والجمل – بحسب مفهوم سوسير، أو نصا متكاملا بحسب تصور لسانيات النص. ففي كليهما أي لسانيات الجملة ولسانيات النص تعرف الدلالة بأنها ((دراسة المعنى... وعلم الدلالة يبحث في الدلالة اللغوية، أي العلامات اللغوية دون سواها، وأن كان موضوع الدلالة هو كل ما يقوم بدور العلامة أو الرمز سواء أكان لغوياً أم غير لغوي، إلا أن التركيز يكون على المعنى اللغوي في مجـــال الدراســـة اللغويـــة إذن موضع الدلالة هو المعنى اللغوي، والمعنى اللغوي ينطلق من معنى المفردة))[٢].

يفهم من ذلك أن أهم مقومات الدلالة هو الرمز ينضاف إليه مفهـــوم الرمـــز والـــشيء المشار إليه أي المرجع، فيكون عندنا ثلاثية لا يمكن فهم الدلالة إلا من خلالها، هذه الثلاثية هـــي حسب المخطط الآتي :

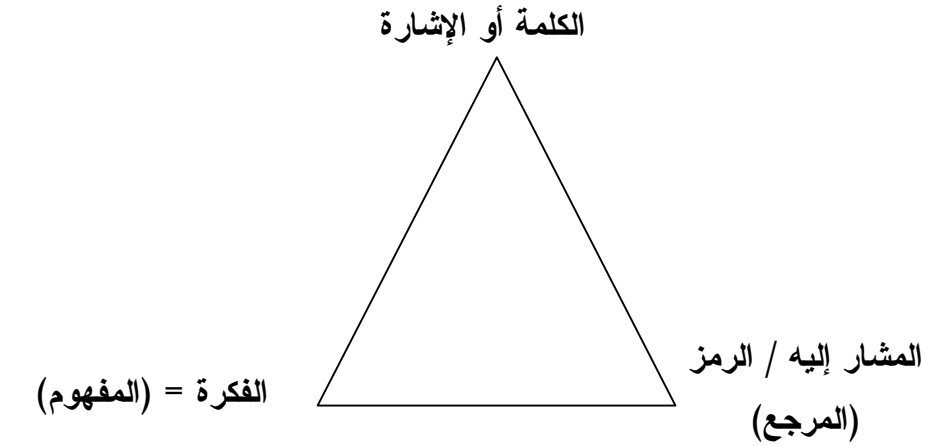

وإذا ما حاولنا توضيح هذا المخطط نقول، بأن الكلمة هي مجموعة الأصوات المتراكبة مع بعضها لتشكل صورة رمزية دالة على معنى معين أو مفهوم ذهني محدد. هذا المفهوم يكون مدلولا لهذه الكلمة وله في نفس الوقت صورة في الخارج تمثل مرجعيته الواقعية.

فاذا حصل أن أدرك أحدنا هذه الصورة بعناصرها الثلاثة، فانه يستطيع ان يحدد اتجاهين دلالين هما[٣] :

- **الاتجاه الأول :** ويتمثل في أن الجملة هي العنصر الأساس للدلالة لأنها تمثل مستوى التركيب، والتركيب هو المستوى الكلي الذي يتوفر على السياق النصي ويحصل فيه مستوى الأسناد والتمايز والتضاد وسائر آليات الاشتغال اللغوي.
- **الاتجاه الثاني :** مستوى الكلمة، وهي تمثل عنصرا جزئيا من المستوى الأول (الكل)، بمعنى أنه من الجملة التي نتوصل الى تحديدها من خلال معرفة المعنى الحقيقي للأقسام المكونة لهذا الكل.

كما ترتبط الدلالة في إطار مستوييي الكلمة والجملة بالمتحدث بالرموز اللغوية، وكذلك المستمع، أي بما يسميه اللسانيون التواصل الرمزي اللغوي، إذ أن هنالك من يعرف الدلالة في إطار هذا المعنى بأنها ((ما يريد المتكلم ان يعبر عنه... وهو يقابل تعريف اللغة بوصفها معنا ممكنا، أي بوصفها سلسلة من الاختيارات او من تعاقبات المعنى. وهي موجودة في حوزة المتكلم – المستمع))[٤].

ويترتب علينا ان ندرك ان المثل الشعبي بوصفه نصاً، وأن هذا النص يتوزع على مراتب وأنواع[٥] :

١- فهناك نص يقوم الخطاب فيه على عدد كبير من الجمل.

٢- وهناك نص يقوم الخطاب فيه على جملة واحدة.

٣- وهناك نص يقوم الخطاب فيه على لفظة مفردة، ولكنها ربما تستدعي نصوصاً كثيرة وهي تستدعي هذه النصوص الكثيرة من خلال إحالتها الممتدة في التاريخ الشعبي و ما يمكن تسميته بالمرجع التاريخي والاجتماعي للمثل الشعبي.

ولعل أهم ما يمكن أن ندركه في هذا النوع من التصورات اللغوية هو أن النص في كل مراتبه وأنواعه لا يقوم إلا بقصد، وهذا القصد لا يكون له مفهوم أو مدلول إلا في إطار السياق النصي المتضمن لخطاب المتكلم، وليس متضمناً للكلمة الواحدة المفردة التي هي وأن كانت بمعزل عن السياق فانها لا تشكل قصداً نصيا. هذا اذا فهم النص على انه جملة ((من العناصر، تترابط بتوفر الروابط التركيبية والروابط الزمنية وكذلك الروابط الإحالية، فلا يكاد نص يخلو من ضمير عائد أو اسم إشارة أو اسم موصول أو غيرها من المعوضات، وهذا أمر يسرته وظيفة الذاكرة البشرية التي يمكنها ان تختزن اثار الألفاظ السابقة وتقرن بينها وبين العناصر الإحالية الواردة بعدها أو قبلها، فتحللها بنجاح دون ضير بالتواصل وعلى هذا الأساس، تقوم شبكة من العلاقات الاحالية بين العناصر المتباعدة في فضاء النص، فتجتمع في كل واحد عناصره متناغمة))[٦].

هذا فيما يتعلق بالجانب اللساني للرموز اللغوية ودلالاتها اللسانية وعمليات توصيل الرسالة اللسانية. أما فيما يتعلق بالمثل الشعبي موضوع الدراسة فنحن نتصور ان المثل الشعبي قبل ان يكون نصاً مكتوباً فانه يمثل كلاما محكياً شفاهياً تشكل في لحظة ما من التاريخ الشعبي القديم، بحيث لا يعرف قائله فهو ملك للجميع، وليس لفرد محدد وقد حدد دارسو المثل الشعبي المثل ((بأنه قول تعليمي مأثور يمتاز بجودة الـ سبك وبالإيجاز انه كما قيل حكمة المجموع وفطنه الواحد))[٧]. نقول هذا الكلام لكي نصل الى إيجاد نوع من العلاقة أو ما يمكن تسميته بـ (نقطة العبور) من الكلام المحكي الشفوي الى الكلام المكتوب، إذ هو محكي ومدون في ان معا.

وفي إطار عناصر عملية النطق التي حددها جاكوبسون (مرسل / متلقي / السياق / اتصال) فأننا سوف نعاني من مشكلة وجود هذه العناصر في الكلام المحكي أو المنطوق وغيابها في النص المكتوب، كما يشير الى ذلك تودوروف إذ يقول ((إن أي عنصر من هذه العناصر لا يظهر في حالة النص المكتوب بنفس الطريقة التي يظهر فيها في الكلام المحكي فالنص المكتوب وبخاصة المطبوع لا يعطينا أي معلومات عن كاتبه الغائب أصلا في فترة التلقي. أن متلقي الإرسالية عرضة للعديد من الاحتمالات))[٨].

وعموما فان قضية الشفاهية والكتابية قضية شائكة ومعقدة، فنحن في عالم اليوم ((لا نكاد نعثر على ثقافة شفاهية، أو ثقافة تسودها الشفاهية))[٩]. ذلك ان الكتابية قد سيطرت على مجال الثقافة ولخصت الكلام الشفاهي حيث أصبح ذاكرة له. ولكننا مضطرون لاستعادة النمط الشفاهي كي نتوصل الى الظروف والسياقات التي انتجت تلك الرموز اللغوية ودلالاتها المرجعية والنصية في لحظة ما من التاريخ.

ثانيا : المثل الشعبي بوصفه دلالة ورمزا :

في إطار كلامنا السابق ربطنا المثل الشعبي بوصفه يمثل رمزا لغويا على مستوى الكلمة والجملة بوصفهما نصا، والمثل الشعبي بوصفه دلالة لغوية لهذين المستوين، فكل مثل شعبي مهما كان نوعه لا يخلو من هذا الوصف اللساني. سواء أكان مثلا أكان مثلا اجتماعياً أم تاريخياً أم فلسفياً. ونحن نتصور المثل الشعبي بانه ((جملة بلاغية موجزة منغمة في الغالب، مقفلة لغويا، مجهولة المصدر، ذات طابع تعليمي، تصاغ في أسلوب شعبي يسمو على الكلام اليومي العادي، وهو يحدد قاعدة الذوق والسلوك، أو الرأي الشعبي الجمعي، ويشيع بالرواية الشفهية، ويتضمن فلسفة ساذجة ليست عميقة، وهو من إبداع فرد ذكي مجبول على قول الحكمة، ولكنه يحمل حكمة الجماعة، ويصدر عن تجربة واعية، وفطرة نقية، وطبيعة غير خادعة، ويتصف بصدق الدلالة))[١٠].

ولعل أهم سمة اتسم بها المثل الشعبي انطلاقا من التوصيفات السابقة هي صفة (الاختزال او الاقتصاد) وهي صفة متعلقة بتركيبة المثل وصياغته اللغوية، إذ أنه لا يحتمل مسألة التمدد اللغوي او التوسع الرمزي، وهي صفة إيجابية وبخاصة إذا فهمت على أنها تؤدي الى نوع من الاتساع الدلالي، وبما يمكن تسميته (تضييق مجال العبارة وتوسيع مجال الدلالة الرمزية).

ولعل اتسام المثل بالاختزال منحه بلا جدال مفاتيح كينونتة الاشارية – الجمالية معا. فهو لا يدخل في تفصيلات من شانها ان تضيع الفكرة الرئيسة، لذلك كان يقتصر على الحد الأدنى منها ليستقطب الثيمة بعمق، لكنه في الوقت ذاته يوحي دون ان يصرح. وبهذا يكون المثل ذا طابع مزدوج، لأنه يجمع الغرابة والتعاقد في بودقة واحدة[١١].

وإذا أردنا التوضيح نقول ان شدة الاختزال في المثل الشعبي جعلته ينفتح أولا على باحة التاويل، إذ أن من المبادئ الرئيسة في هذا المجال أنه كلما ضاقت العبارة اتسع المعنى ولاسيما ان المثل الشعبي قائم – اصلا على توظيف مفارقي كثيف، إذ ((تنحو الليجورية في هذا الشكل من التصوير (المثل) نحو خلق علاقة ما، ترمز الى اختلاف ما.. وهذا الاختلاف هو ما يجعل من مواقف الوجود، موضوعا لتأمل العقل وانفتاح الوعي على تفاعلات العالم وثنائياته الضدية))[١٢] [*].

الأمر الذي دعا كلا من الزمخشري والعسكري الى عد الأمثال على قصرها. تعمل عمل الإطناب في الكلام، لان إيجاز اللفظ سيؤدي – لا محالة – الى غنى المعنى[١٣].

فالمثل إذن لا يعبر عن الواقع بشكل مباشر، وإنما يمثل له تمثيلا عبر صورة أو قصة ما، لذلك كان كل مثل في جملته (إشارة) تحيل الى معنى أبعد، ومن الممكن على وفق هذا المفهوم ان يفهم قول ابن الأثير بان (العرب لم تضع الأمثال إلا لأسباب او جبتها، وحوادث، اقتضتها، فصار المثل المضروب لأمر من الأمور عندهم كالعلامة التي يعرف بها الشيء، وليس في كلامهم أو جز منها، ولا أشد اختصارا)) [١٤].

ان القضية المركزية التي نريد ان نطرحها فيما يتعلق بآليات اشتغال المثل الشعبي بوصفه لغة مجازية هي قضية التناقض والتضاد والتمايز والاختلاف المؤدية الى فعل الانزياح عن المعيار المتعارف عليه في إطار مرجعيات اللغة.

ولعل التناقض في المثل الشعبي يعود سببه الى اختلاف النفسيات الإنسانية وتأثير العوامل النفسية عليه، وكذلك الظروف، كما أن المجتمعات الشعبية مختلفة ومنقسمة الى طبقات

ومهن تتوزع على مستويات متنوعة وأن دارسي الأمثال توصلوا الى نتائج بلاغية يتم من خلالها توصيف المثل الشعبي أدبيا وتحديد ملامحه الفنية مثل[١٥] :

١- مجازية الأسلوب.

٢- كونه مختصرا.

٣- واقعية صوره البلاغية .

٤- تنغيمه.

ويثار في إطار المستوى اللغوي للمثل الشعبي كذلك عند دارسي الأمثال مسألة المستويات اللغوية المتعلقة بدارسة المثل، وهذه المستويات يمكن تصنيفها على المستوى الآتي[١٦]:

١- **المستوى الصوتي** : إذ وجدنا اختصاص العامية بأصوات غير مألوفة في الفصيحة، كما أجازت العامية لنفسها طرقا خاصة في نحت واختزال الأصوات، دون قرينة تدل على المحذوف.

٢- **المستوى الصرفي** : إذ اختصت العامية بأبنية صرفية غير مألوفة في اللغة الفصيحة سيما فيما يتعلق باسم التفضيل وفعل الأمر وتصغير الأسماء.

٣- **المستوى النحوي** : تخلصت العامية من ظاهرة الأعراب ومالت الى الوقف على أخر الكلمات بالسكون. وفقدت علامات الرفع المعروفة للاسم المثنى والمجموع جمعاً سالما.

٤- **المستوى الدلالي** : نجد أن الأمثال العامية في مجمل الفاظها لم تتفق في دلالتها مع ما هو مثبت في المعجم العربي الفصيح. بل اخترعت ألفاظاً ربما ليس لها اصل في القاموس الفصيح، واستخدمتها بدلالات معينة متفق عليها.

ولقد لخص أبو اسحاق النظام الجانب الفني البلاغي للمثل انطلاقا من عناصره المجازية فقال : ((يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام : إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى وحسن التشبيه، وجوده الكناية فهو نهاية البلاغة))[١٧].

وانطلاقا من الجانبين الايحائي والتكثيفي للمثل يمكننا القول بان المثل يشكل بنية نصية متكاملة على الرغم من بنائه القصير، إلا انه يستدعي عند تفسيره سلسلة عديدة من النصوص السابقة عليه. كما أنه يوحي بنصوص لاحقة، وان من أهم خصائصه هو بناؤه القصير المتكامل، فهذا ما رجح نصية المثل، إذ يحسب علم الإشارة فان ((كل بنية إشارية تنقل معنى محددا او مكتملا هي نص))[١٨].

وإذا ما اردنا الولوج الى خواص المثل الشعبي فان المثل الشعبي يتمتع بالخواص ذاتها التي يتمتع بها النص الأدبي من حيث الصياغة (الموضوع – الشكل – الأسلوب) فهو – المثل الشعبي – ذا طابع تعليمي وإرشادي من حيث الموضوع ومختصر ومكثف على مستوى الشكل، وتصويري ديناميكي، تقويه بعض العوامل المساعدة من الجناس التقفية والتكرار والتدرج على مستوى الأسلوب[١٩].

أما فيما يخص مصادر المثل الشعبي، فان المثل حكاية تشكل أنموذج عيش وتماثل مع التجربة التي أحاطت بمن ضرب به المثل. إذ تعد الأمثال الشعبية حكمة الشعوب وينبوعها الذي لا ينضب عندما نسعى جادين في استخلاص الأمثال ذات الحكم والنصائح الإيجابية. ويمكن عد المثل الشعبي وثيقة تاريخية واجتماعية لآن الكثير من الأمثال مبني حول قصة واقعية أو حادثة معروفة في التاريخ. فمن الأمثال الشعبية ما تفرزها حكاية او نكتة شعبية. ومنها ما اقتبس عن الفصحى بنصه او بشيء من التغيير الطفيف. ومنها ما هو عصارة تجارب وممارسات عديدة كانت تلجأ إليها بعض الشعوب. وما تحمله من بصمات ومعتقدات موغلة في القدم، مما يشير الى قدم هذا التراث الذي وصل الينا. أو ما تحمله هذه الأمثال من ملاحظات دقيقة لأعماق النفس البشرية. أو ما هو مستمد من خلال التعامل مع شعوب وثقافات أخرى[٢٠].

وهذه الخصائص هي التي جعلت من المثل بنية مرنة من حيث الشكل والوظيفة وساعدت على جعل المثل من المرويات الشفاهية المتوازنة بوصفها تحمل ميزة ثقافية تؤثر في النفس وتدفعها الى التأمل والعبرة.

ثالثا : المجال التطبيقي للمثل الشعبي (الدلالة الرمزية للمثل الشعبي) :

قبل الولوج الى مجال التحليل النصي للمثل الشعبي يترتب علينا ان ندرك أن المثل الشعبي يتمثل بكونه ((جملة قصيرة صورها شائعة تجري سهلة في لغة كل يوم، أسلوبها مجازي وتسود مقاطها الموسيقى اللفظية))[٢١].

كما يمكن الإشارة الى سلسلة من الخصائص الخاصة التي يتسم بها المثل الشعبي[٢٢] :

١- تتسم الأمثال عادة بجرس موسيقي وإيقاع صوتي خاص يرتبط بموضوع المثل مع إظهار المهارة الفكرية في الأحاطة بمظاهر الحياة اليومية، وملاحظة التغيرات الحادثة في الحياة وحالات النفس البشرية في انفعالاتها المختلفة، كما تقوم الأمثال الشعبية برصد التناقضات التي تشتمل عليها أنماط السلوك البشري.

٢- يضطلع المثل الشعبي بوظيفة أدبية أو بلاغية تقصد الى عرض صور فنية تمتع الحس وترضي النفس من خلال تشبيه دقيق أو مفارقة مضحكة أو تحول طريف.

٣- كما يشتمل المثل على الرمز الحسي المتداخل مع الرؤى التأملية التي تغلف بغلاف فني من الصياغة الأدبية والإيقاع اللفظي تبعاً لطبيعة الحس الأدبي الشعبي.

٤- يتميز المثل بايجازه الشديد فيعبر عن الحدث او التجربة او الحكمة والموعظة.

ولعل هذه الخصائص هي التي جعلت بنية المثل الشعبي بنية مرنة من حيث الشكل الوظيفي وساعدت على جعل المثل من المرويات الشفاهية المتوارثة بوصفها تحمل ميزة ثقافية تؤثر في النفس وتدفعها نحو التأمل والعبرة.

- **مجال التحليل(مستوى الكلمة)**

ونعني به الوقوف عند مستوى الكلمة في الجملة، ومحاولة إبراز الدور المركزي الدلالي لهذا الرمز اللغوي، وتأثيراته النصية والسياقية على مستوى الجملة، من حيث كيفية الاختيار أو ما يمكن تسميته بمستوى الاختيار. وما من شك ان الأمثال الشعبية تستخدم الكثير من المفردات ذات الدلالة المرجعية الواسعة التي تناسب السياق الذي وضعت من اجله. ولنأخذ المثل الآتي كنموذج للتعاكس اللفظي.

((ابن الطويلي قصغ وابن القصيغة طال))[٢٣]

نلاحظ التعاكسات اللفظية على مستوى الرمز اللغوي بين المفردات الآتية :

(الطويلة / القصيرة) (كصر / طال). وقد ولد هذا التعاكس اللفظي في صياغة المفردة ضرباً من التعاكس والتقابل الدلالي كلفظة (الطويلة / القصيرة) تحيل الى المجال الانثوي، في حين ان لفظتي (قصغ / طال) تحيل الى الجانب الذكوري، على الرغم من وجود تماثل لفظي في

الرمز اللغوي (ابن) وان كانت هذه اللفظة تشير بشكل صريح ومباشر الى المجال النوعي للذكر، في حين ان الألفاظ الأخرى هي ألفاظ تقويمية متعلقة بالصفة التي تم من خلالها توصيف المشخصات الأسمية الذكرية والأنثوية.

ولو عدنا الى المجال المرجعي للمثل، لوجدنا ان التقابل الرمزي الدلالي قد توافق في تفعيل مجال المرجعية الخاصة بالمثل الشعبي، إذ تعبر المرجعية عن عدم اتساق الأحوال وثباتها، فهي متحولة ومتغيرة ولا تستقر بشكل دائم، مما يترتب على الآخرين الذين يضرب المثل الشعبي أمامهم توخي الخدر والتزام الوعي في مجمل تصوراتهم وسلوكياتهم.

والمثل الآخر : **(راح العيد وقلقه وكل من رجع على خوقه)**[٢٤] [*].

نلاحظ أولا التقابل بين (راح / رجع) تقابل على مستوى الدلالة، تمثل على مستوى الرمز اللغوي، وهو يحيل على مستوى المسافة، سواء أكانت في حالة الذهاب أم الإياب، إلا ان هذه المسافة ثابتة ومستقرة كون المغادر عنها من نقطة معينة عائد إليها، مما يعني ضمنا التعبير عن عدم الفائدة عند القيام بالفعل اللغوي، في حين ان لفظتي (قلقه / خوقه) مختلفتان في إطار المستوى الدلالي، متماثلتان في إطار المستوى الصوتي والإيقاعي، وأن كل واحدة منهما تحيل الى مستوى مختلف عن الأخرى، فالأولى تقويم سلبي لمستوى المسافة أو المغادرة، والثانية (خوقه) تشخيص للأصل أي بمعنى العودة الى ما كان عليه الأمر سابقا.

ان هذا المعنى المنطلق من مستوييي التماثل والتقابل يؤكد على معنى الثبات في الأصل، وأن الأشياء مهما تغيرت بتغير حالات معينة في الزمن قد تستدعي الاهتمام بها والتحضير لها عبر مغادرة الأصل. لكن سرعان ما تنتهي هذه الأحوال النفسية والشكلية، ويبقى مستوى الرجوع الى الأصل هو القاعدة التي يؤسس عليها، فلا يتوهم أحد ما انه بمجرد التغيير والتبديل اللذين يصاحبان القلق والهم والتفكير بهما، أنهما يستحوذان على جميع اللحظات الزمنية المنافية والمعارضة للنقطة التي انطلق منها، هذه النقطة السابقة هي التي تؤسس لما بعدها وليس العكس. فضلا عن ذلك ان مستوى المغادرة (راح / قلقه) يكون مصاحبا لمعنى (القلق) بسبب انهماك الذهن بالمتغير، في حين أن مستوى الإياب يصاحبه الارتياح والثبات.

ونلاحظ المثل الآتي :

(الأم اتلم والأب يحفغ ويطم)[٢٥].

في هذا المثل تكون عملية التعاكس الدلالي قائمة بين مشخصين اسميين متعارضين (اب / أم) كل منهما يقوم بوظيفة تختلف عن الوظيفة التي يقوم بها الآخر، والرمز اللغوي (الأم) اختصت بوظيفة الجمع والاحاطة تأكيدا على مبدأ الحماية بفعل قدرتها على ذلك، بما تمتلكه من محفزات نفسية تؤهلها للقيام بهذه المهمة. وكان هناك نوع من التماثل الصوتي بين (أم / تلمم) وهو تماثل يشير الى معنى القدرة وإدراك نوعية العمل على المستوى القريب والبعيد في حين ان الرمز اللغوي (ألأب) لم يحظ بهذه الميزة الصوتية الإيقاعية، إذ جاءت الرموز اللغوية (يخفغ / يطمم) غير منسجمة مع تشكيلته الرمزية اللغوية، لا بل هي متضامنة مع المستوى الأول ومستكملة لمستوى الصياغة التماثلية القائمة على (التوقيع او السجع).

وهذا النوع من الاستخدام ليس اعتباطياً، وإنما جاء ليستكمل المعنى الدلالي القائم على التقابل في الوظيفة والتماثل في المستوى الصوتي، حيث ان التقابل الوظائفي (الأم تلمم) و (الأب يحفغ ويطم) يؤكدان على (الجمع / الأخفاء) أو يمعنى أخر (الإظهار / الأخفاء). أما فيما يتعلق بالتماثل الصوتي (الأم / تلمم / يطمم) فأنها تؤكد على استحواذ هذا المجال على مستوى التشكيل الرمزي اللغوي لان الغاية قائمة على أن يكون له دور فعال اكثر من دور الأب.

- **مجال التحليل (مستوى الجملة) :**

ونعني به الوقوف على مستوى الجملة في التحليل، هذه الجملة التي تؤسس على الإسناد والقصد، الإسناد في المجال النحوي، والقصد في المجال الدلالي، بحيث تكون الأجزاء المتداخلة المشكلة للجملة مجالا تحليلياً في كليته وليس في جزئيته. وهذا النوع من التحاليل يجعلنا أكثر تصورا لمعنى السياق الجملي والغايات التي يتم من خلالها تأسيس هذه الجمل بوصفها أمثالا ذات أطر صياغية موجزة ومكثفة. وكما هو معلوم بان المثل يعد جملة أو اكثر تشكل نصاً أدبياً موقعاً ومسجوعاً.

وهذا الأمر يتعلق بالجانب التركيبي من الكلام، وهو على نوعين[٢٦] :

- تركيب نحوي.

- تركيب بلاغي.

أما التركيب النحوي فيبدأ الجملة بفعل أو اسم، ويترتب على هذا نتائج مهمة على مستوى دراسة المعنى، فتركيب الجملة العربية العادية من مثل (جاء محمد) يعد تركيبا محايدا، بخلاف ما إذا قدمنا الاسم (محمد) دون سواه من الأسماء التي قد تتبادر الى الذهن.ومثل هذا التقديم أو التأخير سيؤدي الى نتائج معنوية دلالية. وهذا الأمر قد اهتم به البلاغيون العرب، وبخاصة عبد القاهر الجرجاني، وأكدته الدراسات اللسانية المعاصرة التي تجاوزت الانطباعية، وحاولت استخلاص قوانين شمولية مجردة ووضعت مفاهيم إجرائية عديدة .

ولاننا بصدد دراسة الأمثال الشعبية فأننا سنستبعد التركيز على النظام النحوي للمثل بوصفه لا يخضع لقواعد الجملة العربية الفصيحة كما أسلفنا سابقا. وبالمقابل سوف نركز على نظامه البلاغي الذي يهدف الى صياغة المعنى.وينتمي المثل بوصفه صياغة مكثفة لمعنى ما، الى فن الاستعارة، ضمن النوع الذي يصطلح عليه بـ (الاستعارة التمثيلية) التي تعرف بانها ((تركيب استعمل في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي)) [٢٧] .

ونجد هذه الصياغة المكثفة في الأمثال الشعبية الموصلية كالمثل الذي يقول :

(لما تتمكمك الكني ينغلق باب الجني)[٢٨] (*)

يتوفر هذا المثل على تعبير غير مباشر في جملة (تتمكمك) وجملة (ينغلق باب الجني)، إذ تم تجاوز إيصال المعنى بصياغة حرفية يتطابق فيها الدال والمدلول فتضيق الدلالة حسب الأفق المحدود للتطابق.وعدم المباشرة في الكلام ينقله الى مصاف التعبير البلاغي الذي يمتاز بخلق علاقة حيوية بين النص والقارئ سمتها اشتراك الطرفين في الوصول الى القصد.

وفي جملة (تتمكمك الكني) نجد أنها تعني كمعنى أولي الحركة البطيئة المتثاقلة، لكن هذا المعنى وفق الوصف لا يقدم الغرض المنشود بل يشكل في الحقيقة وسيلة للعبور الى مقصدية الجملة من حيث انه يستلزم معاني أخرى مصلة او ناشئة عنه.

ولا تتضح مقصدية الجملة الأولى إلا من خلال الجملة الثانية (ينغلق باب الجني) التي هي بدورها ايضا تتجاوز إطار المعنى الأولي الذي يدل على انغلاق الباب لتعبر عن معنى أخر يمكن ان يكون إشارة الى انقطاع الخير. وهذا يعود بنا الى الجملة (تتمكمك الكني) إذ تدل على تباطؤ وتقاعس عن القيام بالعمل المراد وأداء الواجب المطلوب، يوصي به التشكيل الصوتي الايقاعي بتكرار الفاء ابتداء ثم تكرار مك مك.

ويتحصل عندنا من هذا الفهم سياق جملي بلاغي للمثل يعتمد على أسلوب الكناية التي لا يراد فيها اللفظ بقدر ما يراد ما ينتج عنه أو يلزم له. وقد رأينا ذلك في دلالة (تتمكمك الكني) على التقاعس عن العمل. ودلالة (ينغلق باب الجني) على انقطاع الخير.

وتظهر هذه الصياغة غير المباشرة للقصد في الأمثال الشعبية الموصلية كما في المثل الذي يقول :

(اشتغي بعقلك بجنجل)[٢٩]

يشير المثل منذ البداية الى أن ألفاظه غير مقصودة على الحقيقة، يدل على ذلك عدم إمكانية الشراء بالعقل، وفي عدم معقولة الدعوة الى شراء البجنجل، لاسيما عند ارتباطه بالعقل. وهذا ينقلنا الى ما وراء هذا التعبير من معنى وقصد وأول ما نتلمس فيه المفارقة التي تنطوي عليها عملية طلب الشراء، حيث البحنجل (الخرنوب) الذي لا نفع فيه، قد طلب من العقل ان يشتريه ويمكن ان نجد المقصدية غير المباشرة في الفعل (اشتغي) الذي تظهر عليه أو كم له من قيمة.

ويضم هذا المثل بين ثناياه شيئاً من الغموض يدل عليه ضرورة معرفة السياق الذي يقال فيه، وقد اشتمل المثل على هذا الغموض من ناحية افتقاره الى التحديد، وعلى هذا الأساس يمكن ان يعني الاستخفاف من جهة فقدان العقل جدواه ضمن الواقع الذي قيل فيه، ونستشف هذا المعنى من خلال ربط العقل الذي له قيمة عليا بالبجنجل الذي لا قيمة له. وهذا يرشح النص الى أن يشع بأكثر من معنى يرتبط بالحادثة التي يستعمل فيها. وبحسب هذا التركيب للمثل يكون معناه بعد الرأي عن الواقع اذ لا يشير الى الحقيقة وعلى هذا النسق تاتي الأمثال الشعبية الموصلية حاملة في تركيبها صياغات غير مباشرة تحتاج الى تحليل بلاغي للوصول الى القصد

وهذه السمة فيها يبرزها امثالا ذات قيمة تعبيرية ومعنوية من خلال اشتمالها على معان إنسانية مقدمة بإطار حكمي.

وإذا أردنا تصنيف هذه الأمثال جميعا ضمن جنس بلاغي فسوف نجد أنها ترد ومن باب الاستعارة بالمثل، إذ يطلق التعبير في واقعة محددة لكنه يبقى صالحا للاستعمال في وقائع جديدة.

الخاتمة

- ان الرمز اللغوي في المثل الشعبي ثابت وقار بالنسبة للجماعة التي تستعمله، بوصفه جزءا من مجموعِ ميراث ينتقل عبر الأجيال. ويفرض نفسه على الأجيال اللاحقة التي لا يؤخذ رأيها في استعماله ولا تستطيع تغييره. لأن المثل منفتح الحضور على الأزمنة والأمكنة. إذ يمكن ان تستخدم في واقعة جديدة بالتركيب القديم نفسه.
- أن اتسام المثل الشعبي بالاختزال أو الاقتصاد اللغوية المكثف، سمة فنية، وبخاصة اذا فهمت على انها ستؤدي الى نوع من الاتساع الدلالي، وبما يمكن تسميته (تضيق مجال العبارة وتوسيع مجال الدلالة الرمزية)، إذ انه كلما أوجزت العبارة أتسع المعنى.
- ترتبط الدلالة في إطار مستوييي الكلمة والجملة بالمتحدث بالرموز اللغوية، وكذلك المستمع للأمثال الشعبية. وهذا ما أطلق عليه اللسانيون بالتواصل الرمزي اللغوية.
- كشفت الدلالة الرمزية اللغوية في المثل الشعبي الموصلي عن وجود مستوييي التماثل والتقابل في جملة المثل الشعبي سواء على مستوى الإفراد أم التركيب. وهذا التماثل او التقابل جاء متظامنا مع الصياغة القائمة على (التوقيع أو السجع).
- تأتي الأمثال الشعبية الموصلية حاملة في تركيبها صياغات غير مباشرة تحتاج الى تحليل بلاغي للوصول الى القصد. وهذه السمة فيها يبرزها أمثالا ذات قيمة تعبيرية ومعنوية من خلال اشتمالها على معاني إنسانية مقدمة بإطار حكمي.

الهوامش

(١) النقد والدلالة – نحو تحليل سيميائي للأدب : محمد عزام، ص ١٢٣ – ١٢٤.

(٢) علم الدلالة : كلود جيرمان وريمون لوبلان، ص ٥ – ٦.

(٣) علم الدلالة : مرجع سابق، ٥٣ – ٥٤.

(٤) اللسانيات والدلالة : منذر عياشي، ع٦٤.

(٥) م . ن، ٦٧.

(٦) نسيج النص _ بحث في ما يكون به الملفوظ نصاً) : الأزهر الزناد، ١٢١.

(٧) بين الفولكلور والثقافة الشعبية : فوزي عنتيل، ٣١١.

(٨) الأدب والدلالة : ١٨.

(٩) الشفاهية والكتابية أو الترج أونج، ٦٥.

(١٠) المثل الشعبي : محمد شمس الدين مجدي، مجلة المناهل، المغرب، العدد (٦٤ – ٦٥)، ٢٠٠١، ١٠٥.

(١١) الإشارة الجمالية في المثل القرآني : عشتار داود محمد، أطروحة دكتوراه، كلية التربية / اللغة العربية، ٢٠٠٤، ٣١.

(١٢) النص القرآني من الجملة الى العالم، وليد منير، ٧١.

(*) **الليجورية** : يقصد بها الصورة المجازية.

(١٣) ينظر المستقصى في امثال العرب / ب – ج، وجمهرة الأمثال / ج١ / ٤ – ٥.

(١٤) المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر / ج١ / ٧٥.

(١٥) فلسفة المثل الشعبي : محمد إبراهيم ابو سنة، ١١.

(١٦) الأمثال البغدادية بين المستوى اللغوي والمستوى الاجتماعي : نهاد فليح حسن، مجلة التراث الشعبي / العدد الفصلي الثالث ١٩٨٥، ٢١٢ – ٢١٣.

(١٧) الفنون الشعبية : رشدس صالح، ٣٦.

(١٨) طبيعة الإشارة الجمالية : ميخائيل خرابتشنكو، ٢٨ – ٢٩.

(١٩) الأمثال : خواصها ومنشؤها : محمد شوقي خليفة، مجلة التراث الشعبي / ع (٣ – ٤)، ١٩٩٩، ٦.

(٢٠) الأمثال الشعبية : اسكر بي شورتن، مجلة دراسات عربية، ع (١١ – ١٢)، س (٥) ١٩٨٥، ٦٤.

(٢١) الفنون الشعبية : مصدر سابق.

(٢٢) التواصل الثقافي في الأمثال العربية ومنهج دراستها : صفوت كمال، مجلة التراث الشعبي، العددان (٥ – ٦) ١٩٧٣، ١٣٠ – ١٣١.

(٢٣) المردد من الأمثال العامية الموصلية : محمد رؤوف الغلامي، ١٠.

(٢٤) مجموعة أمثال الموصل : القس الفونس شوريز، ٤٦.

(*) **خوقه** : وهي قطعة قماش صغيرة ومتهرئة، تستعمل للتنظيف ومسح الأثاث أو غيره / ينظر : معجم الإتباع الدارج في لهجات الموصل، دراسة : لهجية، لغوية، فولكلورية : عبد الله أمين أغا / ٣٤.

(٢٥) معجم أمثال الموصل العامية : عبد الخالق الدباغ، ٦٤.

(٢٦) النقد والدلالة : مصدر سابق، ١٣٧ – ١٣٨.

(٢٧) علم البيان : عبد العزيز عتيق : ١٤٥.

(٢٨) المردد من الأمثال العامية الموصلية : ١٢٠.

(*) **تتمكمك** : أي تمشي ببطء .

(٢٩) معجم أمثال الموصل العامية، المصدر السابق، ٤٧.

المصادر والمراجع

أ- الكتب الجامعية :

- الأدب والدلالة / تودوروف / ترجمة : د. محمد نديم خشفة / مركز الإنماء الحضاري / حلب / ط١ / ١٩٩٦.
- بين الفولكلور والثقافة الشعبية : فوزي العنتيل / الهيئة المصرية العامة للكتاب / القاهرة / ١٩٧٨.
- جمهرة الأمثال / ابو هلال العسكري / تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم وعبد الحميد قطاش، دار الجيل / بيروت / ط٢ / ١٩٨٨.
- الشفاهية والكتابية / والترج. أونج / ترجمة : د. حسن البنا عز الدين / المجلس الوطني للثقافة والفنون / الكويت / د.ط، ١٩٩٣.
- علم البيان / عبد العزيز عتيق / دار الأفاق العربية / القاهرة / د.ط / ٢٠٠٤.
- علم الدلالة / كلود جيرمان – ريمون لوبلان / ترجمة : د. نور الهدى لوشن / دار الفاضل / دمشق /١٩٩٤.
- فلسفة المثل الشعبي / محمد إبراهيم أبو سنة / الهيئة المصرية العامة للكتاب / ط٢ / ١٩٩٦.
- الفنون الشعبية / رشدي صالح / دار القلم / القاهرة / د.ط / ١٩٦١.
- اللسانيات والدلالة / منذر عياشي / مركز الإنماء الحضاري / حلب / ط١ / ١٩٩٦.
- المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر / ضياء الدين ابن الأثير / تحقيق : احمد الحوفي و بدوي طبانة / دار الرفاعي الرياض / ط٢ / ١٩٨٣.

- مجموعة أمثال الموصل العامية / القس الفونس شوريز / مطبعة الآبـــاء الـــدومنيكان / الموصـــل / ١٩٣٧.
- المردد من الأمثال العامية الموصلية / محمد رؤوف الغلامي،/ مطبعة شفيق / بغداد / ١٩٦٤.
- المستقصى في أمثال العرب / الزمخشري / دائرة المعارف العثمانية / حيدر اباد / د. ط / ١٩٦٢.
- معجم أمثال الموصل العامية / عبد الخالق الدباغ / دار طباعة الهدف / الموصل / ١٩٥٦.
- معجم الاتباع الدارج في لهجات الموصل / عبد الله أمين أغا / الناشر : مركز دراســات الموصـــل / جامعة الموصل / ٢٠٠٦.
- نسيج النص – بحث في ما يكون به الملفوظ نصا / الأزهر الزناد / المركز الثقافي العربي / بيروت / ط١ / ١٩٩٣.
- النص القرآني من الجملة الى العالم / وليد منير / المعهد العالمي للفكر الإسلامي / القـــاهرة / ط١ / ١٩٩٧.
- النقد والدلالة – نحو تحليل سيميائي للأدب / محمد عزام / منشورات وزارة الثقافة / دمشق/ ١٩٩٦.

ب- الدوريات :

- الأمثال البغدادية بين المستوى اللغوي والمستوى الاجتماعي / نهاد فليح حسن / مجلة التراث الشعبي / العدد الفصلي الثالث / ١٩٨٥.
- الأمثـــال : خواصـــها ومنـــشؤها / محمـــد شـــوقي خليفـــة / مجلـــة التـــراث الـــشعبي / العـــددان (٣ – ٤) / ١٩٩٩.
- الأمثال الشعبية / اسكربي شورتن / ترجمة / د. احمد مرسى / مجلة دراســات عربيـــة / بيـــروت / العددان (١١ – ١٢) / س (٥) / ١٩٨٥.
- بعض المفاهيم ومدلولاتها الفكرية في المثل الشعبي البغدادي / رجاء عبد الرزاق جميل / مجلة التراث الشعبي / العدد (٢) ١٩٩٢.
- المثـــل الـــشعبي / محمـــد شـــمس الـــدين مجـــدي / مجلـــة المناهـــل / المغـــرب / العـــددان (٦٤ – ٦٥) / ٢٠٠١.

ج- الأطاريح الجامعية :

- الإشارة الجمالية في المثل القرآني / عشتار داؤد محمد / أطروحة دكتوراه / كليـــة التربيـــة / اللغـــة العربية / جامعة الموصل / ٢٠٠٤.